الحديث الرابع من باب الأمر في المحافظة على السنة وآدابها

قال: عن أَبي مسلم، وقيل: أَبي إياس سَلمة بنِ عمرو بنِ الأكوع رضي الله تعالى عنه: أنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: (كُلْ بِيَمِينِكَ) قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: (لا استَطَعْتَ) مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ فمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. رواه مسلم.

لما وصف الله سبحانه وتعالى أحب أحبائه عليه الصلاة والسلام، وصفه بالعبودية والعبودة { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ } [الجن: ١٩]

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء: ١]

فحقيقة العبودية: ترك المنازعة لأوصاف الحق.

اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف ينازع ربوبيته، فحقيقة العبودية: ترك المنازعة في وصف من أوصاف الحق، والكبر وصف الحق، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني تحقق بالعبودية، فلما عدل هذا الرجل عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فقد عدل عن التحقق بالعبودية، ولما عدل عن التحقق بالعبودية نازع الربوبية، ومن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي.

وفي سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام تلوح إشارات ولوائح، قال تعالى: { قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ } [يوسف: ٧٢] ، فصواع الملك وصف من أوصافه، وهذا من باب الإشارة، ومن لوائح هذا المعنى { قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ } [يوسف: ٧٤] إن كان لديكم صواع الملك، ما الجزاء؟ { قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ } وهنا الشاهد، إذا وجد فيك وصف من أوصاف الملك قصمك،أي أخذك، و قال تعالى: { كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [يوسف: ٧٥] والقرآن يفسر بعضه بعضًا { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣] ومن أعظم الشرك أن تنازع الربوبية في وصف من أوصافه، فهذه خلاصة الطريق، خلاصة الطريق التحقق بالعبودية، ترك الدعاوي، أن تبقى بلا أنت، أن لا يبقى إلا هو، فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل.

لماذا قال في الحكم أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته؟ لأن نفسك قد تظهر عند الطاعة ، وإذا ظهرت نفسك نازعت الربوبية، لكن حين عصى وتاب وندم وانكسر وبكى انطرح في أعتابه، ما بقي أنا، فقال أنا عبدك، لهذا قالوا أفعالي: أفعى لي، عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: **كُلْ بِيَمِينِكَ**، كان يدله على العبودية، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الحق أن يأكل بيمينه فأكل بيمينه، هذا وصف العبد، والعبد مطيع لأمر سيده في كل ما يأمره به، فهو يوافق في ظاهره أمر سيده الشرعي، ويوافق في باطنه الأمرين: الشرعي، والكوني.

والأمر الآخر الذي يستفاد من هذا الحديث، أن هذا الرجل أسير العادة، لأنه أعثر تعوّد أن يأكل بشماله، فقوله: **لا أَسْتَطِيعُ**، ها هنا محمولة على أنه أسير العادة، ولو أنه اجتهد وجاهد قليلاً، لاستطاع.

وللإيضاح فقط عندما نقول مثلاً لشخص ما هل تستطيع أن تضع على رأسك عمامة وتمشي بالسوق، يقول: لا أستطيع، فكيف لا يستطيع؟ لأنه محكوم بالعادة، والمحكوم بالعادة لا يكون عبد الله، فلما قال الرجل: **لا أَسْتَطِيعُ** دل على أنه أسير العادة.

ويقول في الحكم:كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد.

ماذا قال سيدنا عبد الله بن رواحة لما جرحت أصبعه؟ قال: إن أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت.

ولما قطعت يد سيدنا جعفر قاتل باليد الأخرى، وبعض الأصحاب وهم في المعركة كانت تقطع يده لكن تبقى معلقة ببعض جلدة، فيطؤها ويكمل حتى لا تعيقه في الجهاد.

ويُصلَب سيدنا خبيب ويقال له: أما تتمنى أن تكون في أهلك، وأن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك، يقول: ما أتمنى أن يشاك رسول الله بشوكة وأنا في بيتي، هكذا يكون خرق العوائد حين يكون لله، حينما يكون كله لله، عقله وقلبه وروحه وجسده ووقته لله، طالما أنه باع نفسه لله فلا يهمه أي شيء، فالذي اشترى البضاعة يتصرف ببضاعته كما يشاء، فهل تسأل صاحب البضاعة التي بعته إياها كيف تتصرف بها؟

فإذا باع الإنسان نفسه وماله لله وتحقق بالعبودية، أيسأل مولاه لم فعلت بمالي ونفسي؟ هكذا يكون العبد، هذه حقيقة العبودية، وإذا لم نتحقق بالعبودية نبقى في الدعاوي.

(يا خليلي قل الله لا ترى ما سوى الله)

لاحظوا ماذا يحصل بالإنسان عندما يجذب قلبه إلى الله سبحانه ويتطهر من السوى، فبمجرد أن أسلم خالد بن سعيد، وهو شاب صغير وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع إلى البيت قال له أبوه: صبأت والله لأمنعنك القوت، فيجيبه مباشرة وهو شاب صغير: إن منعتني القوت فإن الله يرزقني ما أقتات به، كيف يحصل خرق العادة بهذا الوقت القصير؟ لأن الباطن تطهر، ما هو السر؟ هل هو كلام وفلسفات تحفظ؟ إنما هو تطهير الباطن، فإذا تطهر الباطن مما سوى الله تظهر حقيقة العبودية، هذا هو التصوف، ليس التصوف أن تذكر قائمًا أو قاعدًا، إنما هذه وسائل، التصوف هو صفاء الباطن مما سوى الله حتى لا يكون في الباطن من مشهود إلا الله، فكيف يكون الباطن منازعًا في وصف من الأوصاف إذا تطهر؟ ثم كيف يؤذن {مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: ٧٠] والذي يأمر بهذا، رسولٌ صديقٌ لو لا الإشارات الباطنة {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: ٧٦] اللهم فهمنا ذلك آمين.